وللفقراء مهارة تامة في مراقبة خفقان قلوبهم ودورة أجسامهم الدموية وأما تحملهم للآلام الجسمية وصبرهم على الوجع الشديد فانهم يعزونه الى سرعة الدورة الدموية في خلال التجربة الشديدة

جوفري شوسر

Geoffry Chauser

شيخ كتاب الانكليز

طلب اليَّ حضرة الاستاذ الصديق صاحب الاخاء أن أرسم له في كل عدد من إخائه الاغر صورة لأديب من أدباء الانكليز الافذاذ . ومع اعترافي بما يستلزمه هذا العمل من مشقة وعناء ، فقد تقبلت طلبه شاكراً له حسن ثقته

ويجمل بي قبل أن أشرع في ذكر شيخ كتاب الانكليز « شوسر » أن ألمح بكلمة موجزة الى أثر هذا الأدب الغربي في نهضتنا الحديثة . ذلك أني اعتقد أن هذه النهضة الأدبية التي أخذ نورها يشرق في أفق العالم العربي قد اعتمدت اعتماداً ما على مآثر أفذاذ الكتاب الاوربيين . وأستطيع أن أقول إن عدداً كبيراً من رافعي لواء الأدب العربي استمدوا الوحي في نهضتهم الحديثة من منابع أوربية .

وليس معنى هذا أن الادب الاوربي كان المصدر الوحيد لهذه النهضة ، فبين أدباء العرب الاعلام من استوحى مآثر السلف الصالح ، وأتى لنا بالمعجزات . وأول من ينبغي أن يذكر من هؤلاء أديب فلسطين الأكبر العلامة اسعاف النشاشيبي ، الذي كان في طليعة العلماء الاعلام والادباء النوابغ . وجمهور الادباء في العالم العربي يضعون العلامة النشاشيبي في رأس قائمة الادباء الذين خدموا اللغة بما حباهم الله من ذكاء ونبوغ وعبقرية ... والحديث عن الاستاذ النشاشيبي باصاح يحتاج بنفسه الى فصول طوال ، سيكون لنا معها شأن في فرصة أخرى ...

أجل ! لقد كان بين رافعي لواء الادب العربي جمهرة من الكتاب اعتمدوا على شيء من الادب الاوربي غير قليل . وتذهب هذه الجمهرة الى أنه من ألزم

اللزوميات أن يلمّ كبار الادباء بالادب الاوربي لأن في هذا الادب صفحات عبقرية خالدة ينبغي للاديب العربي الناهض أن يكتنه بلاغتها ويقدرها حق قدرها

أما ما يذهب اليه بعض الكتاب من أن الأدب الاوربي أدب مبتور لا أثر له ولا خطر ، فقول يعبر عن عجز في النفس وضعف في الادراك ، ولن يشين الادب الغربي ويحط من قدره ما يلصقه به المتزمتون من الكتاب ، الذين يجهلون اللغات الأوربية ، كما أنه لن يشين الأدب العربي ما يلصقه به صغار الكتبة الذين يجهلون اللغة العربية من العجز والضعف . ومن حق العلم على العالم والادب على الاديب أن يعطي كل شيء حقه وأن يكون حكما منصفا نزيها يصارع هوى الناس ولا يُصرع به

من اكبر فروض العربي أن يكون شديد الحرص على لغته عاملا على اعزازها والاخذ بناصرها . واذا كان هذا الغرض محتوما على كل امريء نحو لغته ، ففرض العربي فوق كل فرض ، ذلك أن في اللغة العربية ذخراً ذخيراً وكنزاً دفينا ، وفيها من اللآلىء والدر ما يخطف الابصار ويأخذ بمجامع القلوب . وفيها « (١) كلام هو المسك ذكيا . والزهر جنيا . والماء مرئيا . والعيش هنيا . والسحر بابليا » وفيها « كتاب اذا أنشأ يذكر الجنة والجحيم كاد سامعه يشهدهما وكاد يرى الجنان ذات الاكل الدائم والرياض النواضر تجري من تحتها الانهار المطردة . وتغرد فيها الطير فوق الاشجار المظللة وكاد يبصر بيده الافنان المتهدلة اليانعة الاثمار . فكاد يعاين الثانية . ويؤنس مالكا والزبانية يصلونها كل ظالم متكبر جبار . وكاد هذا السامع يحترق من أوار تلك النار »

فاذا كان في العربية هذا الاثر الخالد ، وتلك المآثر المفاخر ، فهل يعقل قط أن يدّعي محاوت مراوغ أن العربية ضعيفة عاجزة ؟ الا وربك ما هي بالعاجزة ، وما هي بالمتقهقرة كما يدعي صغار الكتبة المفاقيع ، وانما هي سيدة ذات بلاغة وتعاجيب هيهات ان يدركها عقل مفتون !

وبعد فانا لنستميح القاريء عذراً اذا شططنا عمّا نحن بصدده . فقد أردنا أن نحلي جيد هذا الفصل بدرة سنية من قول الأستاذ الاكبر النشاشيبي ، فبهرنا درّه

(١) كلمة في اللغة العربية للعلامة اسعاف النشاشيبي

حتى كدنا ننقطع عن القارىء . ووالله ما مسّ امرؤ كتاب النشاشيبي الاّ وسرت في نفسه هزة كهربائية عنيفة ! ولا غرو في ذلك فقد أفرغ النشاشيبي روحه في كتابه ، وليست روح النابغة العبقري كلاّ رواح !!

اذن فلنعد الى شيخ كتاب الانكليز (شوسر) واسمع يا صاح .

جوفرى شوسر

ولد (شوسر) عام ١٣٤٠ للميلاد في عهد الملك أدوارد الثالث وقد كانت لغة الادب يومئذ اللغة اللاتينية والافرنسية ، ولم يكتب في اللغة الانكليزية القديمة الا طائفة من الاشعار التي تصف أخبار الابطال وتحدثنا عن أساطير الأولين .

الا أن (شوسر) خرج على تلك النظم وأخذ يتحدث الى ابناء جلدته بلغتهم المألوفة ، قاصا عليهم أخبارهم التي يتلمسها بين طبقات الامة ، ومن اليسير أن نفهم أن تلك اللغة الانجليزية التي كان يكتب بها شوسر لم تكن كاللغة الانكليزية التي يرطن بها أبناء (التايمس) اليوم ، لما بين هذا العصر وذاك من طول الأمد واختلاف الاطوار .

كان والد (شوسر) خمارا يتعهد قصر الملك بما يلزمه من خمر . وقد كان الشعب الانكليزي يومئذ يدمن على شرب الخمر ، حتى لا تكاد تجد انكليزيا زاهداً فيه ولعل هذا الشغف العجيب بالخمر الذي نراه اليوم بالانكليز مما ورثوه عن أجدادهم الاقدمين ! ويغلب على الظن أن (شوسر) دخل في احدى المدارس ونال منها قسطا من العلم دفعه الى الافراط في حب الكتب ومطالعتها . ومن ثم تنقطع بنا

أخبار هذا (الصبي) شوسر ويصبح تاريخه أقرب الى الاسطورة منه الى التاريخ الثابت . ولما بلغ السابعة عشر من عمره دخل في خدمة الاميرة اليصابات وتعلم أداب المعاشرة شأن الذين يطيلون الاقامة في قصور الامراء والملوك . وبعد سنتين سافر مع سيده البرنس ليونل (Lionel) الى فرنسا وحارب في ركابه الى أن وقع أسيرا في ايدي الفرنسيس . ومن ثم نعلم أن الملك ادوارد افتداه لفرط محبته له .

وبعد ثماني سنوات ابتسم الحظ لشوسر فعقد له على فتاة من ذوات الحسب كانت احدى وصيفات الملكة ، وقرب الي جون اف كيونت (John of gaunt) أمير (ديوك) لانكستر وأحد أبناء الملك أدوار فاتنسا وتحابا حبا جما ، وقد متن هذه الصداقة التي لازمتهما حتى الموت زواج الامير جون من شقيقة زوج شوسر .

اذن ارتفع (شوسر) بعد هذه النعم التي اسبلت عليه الى مصاف رجال الدولة أصحاب الشأن الخطير . فأرسله الملك غير مرة الى فرنسا وايطاليا لينجز له بعض الشؤون التجارية التي تتعلق بالدولة وخلع عليه وظيفة قلما يحلم بها المقربون الى الملك ، وهي وظيفة جابي الأموال والملك تدرك أيها القارىء خطر هذه الوظيفة حين تذكر أن هذا الموظف كان مهيبا مسموع الكلمة يمثل الملك على عرشه ! وقد عين الى جانب هذا عضوا فيما قد نطق عليه اسم دار النيابة . ولكنه لم ينقطع عن العلم في أثناء هذه الحياة الرسمية الشاقة ، فقد كان يعكف على كتبه من حين لآخر ، ويخط ما تجود به قريحته من رائع الشعر الى ساعة متأخرة من الليل . ولكن الحظ ضنين ، فقد خسر الأمير (جون اف كونت) سلطانه في البلاط الملكي ، وخسر (شوسر) بخسران صديقه الامير ما أنعم عليه الدهر من حظ وسؤدد حتى أصبح فقيراً معدما مدينا ... ولكن لم يشأ ربك أن يذل الرجل بعد عز ومنعة فقد عادت للامير جون منعته وعاد صاحبنا (شوسر) الى وظيفته في الدولة . ومن ثم نجد (شوسر) يتولى أمر أعمال الدولة ، فكلف بالعناية بأبنية الدولة وأسوار المدينة لتكون على ما يشتهي الملك من رواء ورونق .

ولما ارتقى الملك هنري الرابع ابن الامير (جون اف كونت) عرش الملك كان أول عمل أخذه على عاتقه زيادة عمولة أصدقاء والده .. ولكن (شوسر) لم يعش

طويلا ليتمتع بهذا العطاء الوفير، فانتقل الى رحمة ربه بعد عام من هذا الحادث أي في عام ١٤٠٠ ، بعد أن بلغ من العمر ستين عاما ...

هذه لمحة من تاريخ هذا الرجل ، وهي كما ترى غامضة لما خالطها من الروايات المتضاربة التي أهملناها برمتها .

وأعظم أشعار (شوسر) شعره المعروف بحكايات كنتربري Canterbury Tales التي يعدها الانكليز من مآثر أدبهم الخالدة . ويحدثنا (شوسر) في شعره هذا الذي وضعه حين كان في الخامسة والاربعين من عمره ، انه سافر صباح يوم من أيام الربيع الى (كنتربري) حاجا . ولما بلغ فندقا (تابورد إن) في (ساوثورك) اجتمع بتسعة وعشرين حاجا من عناصر متباينة ، منهم التاجر والقسيس والراهب والفارس والمحامي وصاحب الطاحون والطالب المعدم من اكسفورد والحارث والنجار والنوتي وما اليهم ! ومن ثم يصف لنا شخصيات هؤلاء الافراد وصفا يخالطه شيء من الفكاهة والمداعبة . ومن ثم يستمر في قصته ويقول أن صاحب الفندق اقترح على زبائنه أن يقص كل منهم قصتين كي يستأنسوا في طريقهم الى الحج ويقطعوا تلك المسافة المتعبة بنوع من الحديث الجذل الطريف ، وهو يعدهم أن يرافقهم في سفرتهم هذه وأن يكون حكما بينهم . ويقترح أن يقدم للفائز منهم طعاما شهيا على نفقة هؤلاء الاصحاب . ثم يقول إن المسافرين رضوا بما اقترحه عليهم صاحب الفندق وساروا في طريقهم الى الحج فقص كل منهم على رفاقه قصتين ، فلم يشعروا الا وهم على أبواب الحج دون أن يتطرأ الملل الى قلوبهم ! !

وقد كنت أرجو أن آتي على ملخص أحدى هذه القصص الشائقة ليطلع القارىء الكريم على ما ذهب اليه (شوسر) في أحاديثه من الوصف الدقيق والقصص الرقيق ، الا اني اجتزىء بهذا اليوم خشية الملل وموعدنا العدد القادم

القاهرة — اسحق موسى الحسيني